تبادل التمثيل الدبلوماسي البريطاني السعودي ١٩٢٩ - ١٩٣٠

الدكتور جمال محمود حجر
أستاذ مساعد بقسم التاريخ

لعل وصول الشيخ حافظ وهبة إلى لندن في ٧ نوفمبر ١٩٣٠ ، بصفته أول وزير مفوض سعودي يبعث به الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود إلى أي مكان في العالم ، إعلان بنهاية مرحلة طويلة من الإتصالات غير المنتظمة ، بدأت في عام ١٩٠٣ ، حين سعى الأمير عبدالعزيز إلى إيجاد قناة اتصال تمكنه من إدارة حوار مع بريطانيا ، أقوى الدول الكبرى نفوذاً في المنطقة في ذلك الوقت .

ومنذ البداية مرت محاولات إقامة تمثيل دبلوماسي بريطاني - سعودي بعدة مراحل نستطيع أن نضع لها التصور التالي :

المرحلة الأولى : وتبدأ بعام ١٩٠٣م ، حين بعث الأمير عبدالعزيز -من الرياض- عبدالرحمن بن سلمان ، أحد كبار أهل الإحساء لمقابلة المندوب البريطاني في البحرين ، للتشاور حول ما يمكن أن تقدمه بريطانيا للأمير السعودي من مساعدة ، إذا نهض ضد الدولة العثمانية . وتنتهي هذه المرحلة بعام ١٩١٣ ، حين أطل عبدالعزيز على ساحل الخليج العربي -دون مساعدة من أحد- وفرض نفسه على الحضور البريطاني في الخليج[1] .

في هذه المرحلة ، كانت ممتلكات الأمير عبدالعزيز تقع في دائرة اهتمام حكومة الهند البريطانية ، وبالتالي كانت اتصالاته ببريطانيا تتم من خلال الوكلاء السياسيين في الكويت أو البحرين أو حتى مسقط ، ولم تكن بريطانيا في هذه

المرحلة تعتزم تعيين وكيل مقيم لها في الرياض ، لانتفاء الحاجة إلى ذلك . وبصفة عامة ، كانت الاتصالات محدودة للغاية ، لأسباب تتعلق بطبيعة الاستراتيجية البريطانية في هذه المرحلة .

المرحلة الثانية : تبدأ بعام ١٩١٤م ، حين نشبت الحرب العالمية الأولى ، وصار من الضروري أن تقيم بريطانيا إتصالات مع مختلف الحكام العرب . وتنتهي في عام ١٩٢٥ ، مع نهاية الحكم الهاشمي في الحجاز ، الذي كان لبريطانيا فيه تمثيل سياسي وقنصلي معتمد .

في هذه المرحلة ، حدث مد واضح في رقعة البلاد التي كان يحكمها عبدالعزيز بحيث صارت تلامس مناطق تقع تحت إشراف وزارة المستعمرات . وبالتالي كان عليه أن يقيم إتصالاته بهذه الوزارة ، فيما يتعلق بشئون المناطق المجاورة ، إلى جانب اتصالاته السابقة مع حكومة الهند ، وكان ذلك كله يتم من خلال سفارات غير مقيمة[٢] .

المرحلة الثالثة : تبدأ بعام ١٩٢٦م ، حين استقر الحكم في الحجاز لعبدالعزيز ، حيث كانت توجد سفارات مقيمة لبعض الدول الكبرى في جدة ، على مستوى الوكلاء السياسيين والقناصل . وتنتهي بعام ١٩٢٨ ، حين بدأت عملية تطوير قنوات الاتصال الدبلوماسي .

في هذه المرحلة ، أصبح واقع قنوات الاتصال أكثر تعقيداً ؛ ذلك أن الحجاز كان يقع في دائرة اهتمام وزارة الخارجية البريطانية ، وكانت هذه ممثلة في «القنصل والوكيل السياسي» المقيم في جدة . ومع أن هذه الصفة الدبلوماسية لممثل بريطانيا لم تكن مؤكدة ، فإن صلاحياته بقيت محصورة في إقليم الحجاز بعد دخوله تحت حكم عبدالعزيز آل سعود . وقد أدى ذلك إلى ظهور هذه الطبيعة الشاذة لتوزيع الاشراف السياسي على شبه الجزيرة العربية بين ثلاث جهات مختلفة ، هي : وزارة الهند من خلال حكومة الهند ، ووزارة المستعمرات من

خلال الأدميرالية ، ووزارة الخارجية من خلال القاهرة ، مما أدى إلى حدوث كثير من المشاكل ، التي كان من الصعب إيجاد حل لها بدون تشاور كامل بين هذه الجهات الثلاث الرئيسة[٣] .

وقد توضح هذه الصورة أسباب عجز الإدارة البريطانية (المسئولة عن صناعة القرار) ، عن التصرف في الوقت المناسب باتخاذ القرار المناسب . فمثلاً إذا كان الملك عبدالعزيز في الرياض ، أو في المقاطعات الشرقية من بلاده ، وأراد الاتصال ببريطانيا ، يمكنه أن يفعل ذلك من خلال الوكلاء السياسيين الثلاثة في الخليج (الكويت ، البحرين ، مسقط) ، ومنهم إلى المقيم السياسي في بوشهر ، على الساحل الفارسي ، ومنه إلى حكومة الهند ، فوزارة الهند بلندن ، ويسلك الرد عليه الإتجاه المعاكس من نفس الطريق . وإذا تصادف أن كان الملك في المناطق الشمالية ، فعليه أن يقيم اتصالاته مع المعتمد السياسي في بغداد أو في القدس ، وهي الإدارة البريطانية لمناطق الانتداب التابعة لوزارة المستعمرات . أما إذا كان الملك في الحجاز فإن لديه وكيلاً سياسياً مقيماً في جدة ، يوصله بوزارة الخارجية البريطانية عن طريق القاهرة . وفي النهاية ، فإن كل ما يأتي من الملك عبدالعزيز يصب في لندن بعد مروره بقنوات مختلفة ، فإذا تشابكت الأحداث على أطراف بلاده ، وتعددت المشاكل حولها ، يتضح لنا كم كانت صناعة القرار النهائي صعبة ، إن لم تكن مستحيلة .

هذه الأوضاع هي التي دفعت الملك عبدالعزيز مراراً إلى طلب توحيد قنوات إتصاله ببريطانيا ، لتصبح قناة واحدة ، تتبع وزارةالخارجية دون غيرها . وفي عامي ١٩٢٧ و١٩٢٨ تكاتفت الجهود لتحريك قضية تطوير التمثيل الدبلوماسي مع بريطانيا . وقد نشط كل من فؤاد حمزة[٤] ، «المسئول الفعلي عن الشئون الخارجية للملك عبدالعزيز» في ذلك الوقت ، والوكيل السياسي البريطاني في جدة (ستون هيوار - بيرد)[٥] . فقد كان الرجلان متحمسين لتطوير العلاقات الدبلوماسية بين بلديهما ، كما كانا قادرين على التأثير المباشر في حكومتيهما ، على

تفـاوت محتـوى كلمة «حكومة» ، فضلاً عن كفاءتيهما في معالجة الموضوع ، مما مكنهما من الوصول إلى الغاية المطلوبة في عام ١٩٢٩[٦] .

ومن هنا تبدأ **المرحلة الرابعة** ، التي نحن بصدد دراستها في هذا البحث ، في عام ١٩٢٩ حين استقر الرأي بين الحكومتين البريطانية والسعودية على ضرورة تطوير التمثيل الدبلوماسي ، ورفعه إلى مستوى المفوضية ، وتبادله ؛ حيث أن الملك عبدالعزيز لم يكن له أي نوع من التمثيل الدبلوماسي أو القنصلي في بريطانيا قبل عام ١٩٣٠ .

خلال هذه المرحلة ، حرص بيرد على توكيد صفته الدبلوماسية ، فقد كان الممثلون البريطانيون قبله في وظيفة «قائم بأعمال الوكيل والقنصل» Acting Agent and Consul وهي درجـة تقل عن درجة الوكيل Agent والقنصل Consul معاً . ولذلك يعتبر بيرد أول ممثل بريطاني في جدة يحصل على لقب «الوكيل السياسي والقنصل» ، وقد غلبت على هذا اللقب الصفة السياسية[٧] .

وعلى مستوى آخر ، كان بيرد حريصاً على توسيع دائرة اختصاصه لتشمل كل البلاد الواقعة تحت حكم الملك عبدالعزيز ، ولا تقتصر على الحجاز وحده ، لا لتيسير إمكانيات صناعة القرار فحسب ، ولكن لإحداث تغيير جوهري في مركزه بجدة ، بأسلوب هادىء يدعم مركزه ، في مواجهة المسئولين البريطانيين ، التـابعين لوزارة المستعمرات ، في مناطق الانتداب البريطاني المجاورة . ولكن الظروف السياسية العامة ، فضلاً عن الاختلافات العقيمة بين وزارتي الخارجية والمستعمرات ، حول تحديد الصلاحيات الخاصة بكل منهما في المنطقة ، حالت دون تحقيق ذلك الطموح في حينه[٨] .

وقـد عوّقت ظروف بيرد الصحية السيئة قدرته على متابعة موضوع توسيع دائـرة الاختصـاصـات ، فتركه لخلفه جاكنز[٩] . وساعدت الظروف السياسية

العامة ، التي واجهت بريطانيا في المنطقة ، على سرعة إتمام الخطي ، التي كان بيرد قد بدأها من قبل ؛ فقد اشتعلت حركة تمرد الاخوان في شرقي وشمالي شبه الجزيرة العربية ، مما هدد الحضور البريطاني في مناطق الانتداب ، وأبرز أهمية الحاجة إلى سرعة الاتصال بالملك عبدالعزيز ، وإلى سرعة صناعة القرار المناسب .

وبناء على ما سبق ، كُلف القائم بأعمال القنصل البريطاني في طنجة (بوند)[١٠] بالسفر إلى جده في مايو ١٩٢٩ ، لشغل منصب «الوكيل السياسي والقنصل» البريطاني لدى الملك عبدالعزيز . وأوصى جورج رندل في ٧ مايو ١٩٢٩ ، بضرورة التأكيد على أن يمنح بوند الصفة السياسية ، حتى يتمكن من ممارسة صلاحياته في «مملكة الحجاز ونجد وتوابعها» ، وهو الإسم الذي كان الملك عبدالعزيز يؤثر استخدامه في المراسلات الرسمية . وبذلك أصبح في إمكان بوند أن يناقش -بطريقة رسمية ولأول مرة- قضايا تجري خارج منطقة الحجاز[١١] .

هكذا استقبل الملك عبدالعزيز ، في ١٦ يونية ١٩٢٩ ، أول ممثل دبلوماسي إلى بلاده تغطي صلاحياته كل أطراف مملكته الواسعة ، ويتبع لوزارة الخارجية البريطانية مباشرة ، وبذلك تخلص من إزدواجية قناة الاتصال ببريطانيا . وألقى بوند في حفل استقباله خطاباً ، يفيد بأن بريطانيا قررت إخراج علاقاتها الدبلوماسية مع الملك عبدالعزيز من مرحلة السكون إلى مرحلة الانطلاق[١٢] .

هذه الدراسة -إذن- غير معنية بالدبلوماسية بمعنى فن ممارسة العلاقة بين بلدين ، كما أنها غير معنية بتنظيم هيكل السلك الدبلوماسي وقواعده ، وإنما هي معنية بالتطور التاريخي لقيام التمثيل الدبلوماسي وتبادله بين بلدين متفاوتين في كل شيء ؛ في الحجم والقوة والفكر والثقافة . . . إلخ .

* * * * *

وقد شهد عام ١٩٢٩ تطوراً أكثر أهمية ، فرضته تغيرات سياسية في لندن وفي المنطقة ؛ ففي لندن أسفرت الانتخابات العامة عن وصول حكومة رمزي ماكدونالد James Ramsay Macdonald إلى الحكم ، التي شغل فيها آرثر هندرسون A. Henderson منصبي وزير الخارجية ووزير المستعمرات . وكان لذلك أثره الحميد في التقريب بين وجهتي نظر الوزارتين ، لصالح تدعيم العلاقات الدبلوماسية وقنواتها بين البلدين .

وفي المنطقة ، في نفس الوقت تقريباً ، كانت الأزمة حادة بين الملك عبدالعزيز والاخوان ، وقد دفعته هذه الأزمة إلى : توطيد علاقاته ببريطانيا ، وتطوير قنوات الاتصال بها إلى مستوى أرفع من مستوى «الوكالة السياسية»[١٣] ، وفوق ذلك ، إنشاء تمثيل دبلوماسي سعودي مقيم في لندن . وتعتبر رسالة فؤاد حمزة إلى بوند ، في ١٨ يونية ١٩٢٩ ، أول مناسبة يفصح فيها مسئول سعودي عن رغبة الملك عبدالعزيز في أن يرى وزيراً مفوضاً أو سفيراً لبلاده في عاصمة الامبراطورية البريطانية[١٤] .

لم ينتظر الملك عبدالعزيز رد بريطانيا على رغبته في تطوير التمثيل الدبلوماسي البريطاني إلى مستوى المفوضية وتبادله ، فبدأ يعد لترشيح شخص مناسب ، ووقع اختياره على الشيخ حافظ وهبه ، ليكون أول سفير له في لندن ، وكان حافظ وهبة نفسه متحمساً لشغل منصبه الجديد الذي رشح له . وحافظ وهبة مصري الأصل ، له ماض سياسي طيب ، وهو من أنشط مؤيدي حركة الجامعة الإسلامية ، وله مواقف جادة في مواجهة الاستعمار الغربي لبلاد العالم الإسلامي ، وضعته المخابرات البريطانية في قائمتها السوداء ، لأنها وجدت فيه داعية لتجميع المسلمين ضد بريطانيا . وكان الملك عبدالعزيز قد اختاره في بداية حياته السياسية مستشاراً له ، وأوفده في عدد من المهام الرسمية خارج نجد ، كما بعثه مندوباً عن الحجاز ونجد إلى أوروبا في بعض المؤتمرات الدولية[١٥] .

وفي حماس شديد ، سافر حافظ وهبه إلى لندن في يونية ١٩٢٩ ، وفاجأ المسئولين في وزارة الخارجية بوجوده ، فاستقبله أوليفانت ، مساعد وكيل وزارة الخارجية[١٦] ، بشيء من الاندهاش والحيرة ، عندما علم أنه قدم ليمثل بلاده في لندن ، وأنه سعيد لأن يكون أول «سفير لمملكة الحجاز - نجد في عاصمة الامبراطورية البريطانية» . وعقب اللقاء بينهما ، سجل أوليفانت في يوميات الوزارة اعتراضاً صريحاً على طموحات حافظ وهبه فكتب يقول «على كل حال ليس من الوارد أن يكون لبريطانيا سفير في جدة» . وتعني هذه العبارة أنه لن يكون للحجاز - نجد سفير في لندن . كانت تلك هي المرة الأولى التي تذكر فيها كلمة «سفير» في الرسائل المتبادلة بين الطرفين . إن الحماس لتبادل التمثيل الدبلوماسي لدى حكومة الحجاز - نجد ، في نظر أوليفانت ، كان أقوى من الحرص على اتباع التقاليد المعروفة في مثل هذه المواقف . ويفسر أوليفانت موقفه من هذه الفكرة بأن مملكة الحجاز- نجد «ليست متحضرة ، ولا هي واقفة على التقاليد الدبلوماسية ، ومهما يكن من أمر ، فلا يجب أن نكون قاسين على الشيخ (حافظ وهبة) ولكننا نريد أن نزيل الوهم الذي لديه»[١٧] .

لقد دفع حافظ وهبة الاتهام عن نفسه وعن حكومته ، وأكد أن حكومته كانت على اتصال بالوكيل السياسي البريطاني في جدة حول ذات الموضوع ، في ١٨ يونية ١٩٢٩ ، أي قبل تسعة أيام من لقاء وهبة بأوليفانت[١٨] . هكذا لم يكن وجود حافظ وهبة في لندن مفاجأة ، ولكن المفاجأة كانت في اقتراحه بأن يكون «سفيراً» لبلاده في لندن .

لم نعثر على ما يفيد بأن الشيخ حافظ وهبة كان يعني فعلاً كلمة «سفير» التي رددها أمام أوليفانت ، كما لم نعثر على ما يفيد تصحيحه لها ، إن كان يقصد غيرها ، ككلمة «وزير» مثلاً . ولكننا وجدنا هذا التصحيح في حوار مسجل بين فيلبي Philby وكل من دالتون Dalton (المسئول عن الشئون الشرقية في وزارة

الخـارجية) ، وهنـدرسـون Henderson (وزير الخـارجية) . وقـد بعث فيلبي بمضمون هذا الحوار إلى فؤاد حمزة في نوفمبر ، لأنه وجد من المناسب أن يصحح لكـل من دالتـون وهنـدرسـون ما وقع فيه الشيخ حافظ وهبه من «خطأ» غير مقصـود ، حينـما عرض المـوضـوع من قبـل ، واقترح تبادل «السفراء» وليس «الوزراء» . وقد تحمل فيلبي مسئولية التصحيح هذه دون أن يطلب منه[١٩] . وذلك لأنه كان سيستفيد من توطيد أواصر العلاقات البريطانية - السعودية في المجال الاقتصادي .

لم يكن أوليفانت رافضاً لفكرة رفع مستوى التمثيل الدبلوماسي ، ولا لتبادل الممثلين ، ولكنه كان يبحث عن الأسلوب المناسب لتحقيق ذلك ، فوجد في سير جلبرت كلايتون G. Clayton مستشاراً يعتمد عليه في هذه المسألة ، لأنه كان -في نظر كثـير من المسئـولـين- حجة في الشئون العربية . كان كلايتون يرى «إن علاقاتنا مع ابن سعود الآن ، تختلف كثيراً عن تلك التي كانت قائمة منذ سنوات قليلة مضت ، وليس من المعقـول أن نـنـاقش ما إذا كان لنا أن نساعد الملك عبدالعزيز ونقوي مركزه ، ولكن علينا أن نفعل ذلك كلما كان ممكناً»[٢٠] . كان كلايتون يدعو حكومته إلى تخطي كل التفاصيل وصولاً إلى إدراك أهمية دعم مركز الملك عبدالعزيز وضرورته .

أثرت كلمات كلايتون ، الذي كان عائداً لتوه من زيارة للملك عبدالعزيز ، في توجيه قرار الحكومة البريطانية ، ورأى أوليفانت أن تتصدى وزارة الخارجية بكـامل ثقلها لدعم العلاقات البريطانية - السعودية ، من خلال تطوير تمثيل دبلوماسي يتناسب وهذا الهدف . ووجد أن على وزارةالخارجية أن تقنع وزارتي المستعمرات والهند بأن «الوقت أصبح مناسباً لتحويل الوكالة البريطانية في جدة إلى بعثة دبلوماسية»[٢١] .

بنى أوليفانت قراره السابق على أسس سياسية ، فعبدالعزيز آل سعود كان

دائماً صديقاً لبريطانيا ، وظهوره كأقوى حاكم في شبه الجزيرة العربية يعد «عاملاً ذا أهمية قصوى في الشرق الإسلامي ، وعلاقاتنا معه سيكون لها أثر مباشر على مركـزنـا في الهند وغيرها من بلاد الشرق» . وأضاف أوليفانت أن شبه الجزيرة العربية تمثل موقعاً متميزاً على طريق الملاحة البحرية بين الشرق والغرب . كما أن جهود بريطانيا لإنشاء طريق جوي جديد على طول الساحل العربي للخليج ، إنما تعتمد في نجاحها على حسن علاقاتها بالملك عبدالعزيز ، الذي تجاور بلاده مناطق الانتداب البريطاني ، ومناطق النفوذ البريطاني في الخليج . وفوق ذلك كله هناك عدد كبير من المسلمين المتمتعين بالجنسية البريطانية يزورون مكة كل عام ، ولا يمكن المحافظة على سلامتهم إلا من خلال القنوات الدبلوماسية . «إن تحقيق السلام والأمن على حدوده يعتمد بالدرجة الأولى على علاقة الصداقة معه ومع حكومته . . . لقد دعم مركزه في معظم أركان شبه الجزيرة على مدى السنوات الثلاث الماضية ، ولم يعد هناك سبب وجيه واحد للتشكيك في قدراته أو في نظام حكمـه» . وأضـاف أن الموضوع الذي يجب أن يناقش فوراً هو : «تأسيس علاقات دبلوماسية عادية ، بأسرع ما يمكن لإنهاء حالة العلاقة غير الطبيعية القائمة»[٢٢] .

بناء على ما سبق ، طلبت وزارة الخارجية ، في يوليو ١٩٢٩ ، إلى كل من وزارة الهند ووزارة المستعمرات أن تبدي رأيها في الموضوع[٢٣] ، وذلك بعد أن أبلغت حافظ وهبة ، في أواخر يونية ، أن الموضوع قيد الدراسة[٢٤] . ولم تتردد وزارة الهند في مساندة وزارة الخارجية فيما ذهبت إليه ، وفي ١٩ يوليو نصحت بأن «الوكالة البريطانية في جدة يجب أن تتحول إلى بعثة دبلوماسية بطريقة طبيعية ومنـظمـة مع الملك عبـدالعزيز»[٢٥] . أما وزارة المستعمرات فقد رفضت تلك الأفكار ، دون إبداء الأسباب .

رأت وزارة الخارجية أن رفض وزارة المستعمرات يعني أنها ترغب في مواصلة

التدخل في شئون شبه الجزيرة العربية ، وخصوصاً في مسائل الحج والحجاج ، وهو أمر سيؤلب المسلمين على الحكومة البريطانية ، فضلاً عن عدم ارتياح الملك عبدالعزيز للتعامل مع لندن إلا من خلال وزارة الخارجية . أما إذا كان رفض وزارة المستعمرات مردوداً إلى حالة عدم الاستقرار في نجد نتيجة لتمرد الاخوان ، الذين تحدوا الوجود البريطاني في مناطق الانتداب بالغارات المفاجئة على مراكز القوات البريطانية ، فقد رأت الخارجية أن التغلب على مثل هذه المشاكل لا يمكن أن يتم إلا من خلال قنوات الاتصال المناسبة ، التي تضمن التحكم في كل الخيوط الدبلوماسية ، حتى لا تصطدم اتجاهات الوزارات المختلفة ببعضها ، وحتى لا تبدو السياسة البريطانية متناقضة . على كل حال ، وافقت وزارة المستعمرات في أول أغسطس ١٩٢٩ على خطة وزارة الخارجية[٢٦] . وفي واقع الأمر ، لم تكن مناقشة هذه المسألة متروكة للجهات الرسمية وحدها ، وإنما ساهمت بعض الجهود غير الرسمية في تيسير الوصول إلى هذه النتيجة ، ومنها جهود فيلبي .

* * * * *

لقد سعى فيلبي في سبيل إقامة مفوضية بريطانية في جدة ، وأخرى سعودية في لندن ، بالرغم من أنه كان خارج إطار العمل الرسمي في الحكومة البريطانية ، منذ عام ١٩٢٤ ، ولكن حرصه على تطوير مشروعاته الخاصة ، وتأمين رأسماله في جو من الاستقرار ، وصداقته للملك عبدالعزيز ، كل هذا دفعه لأن يستخدم نفوذه القديم ، لدى بعض أصدقائه ، من بين الذين لا يزالون في الخدمة ، كي يدفعوا بعملية تطوير التمثيل الدبلوماسي دفعاً . وفي نفس الوقت كان فيلبي يقدر تماماً حالة القلق التي يعانيها الملك عبدالعزيز وحكومته ، ويقف على ذلك من الملك نفسه ومن مدير خارجيته (فؤاد حمزه) الذي يعد في نظره من «أكفأ الشباب العربي الناهض» خاصة وأن إهمال الحكومة البريطانية تلبية رغبة الملك -فيما سبق- أغضبه كثيراً[٢٧] .

نقـل فيلبي هذه الأفكـار في رسـالة إلى دالتون ، في ٧ نوفمبر ١٩٢٩ ، وأضـاف أن كلاً من الملك عبـدالعـزيز وفؤاد حمزة يلاحظ أن بريطانيا مشغولة بقضايا أخرى عن أن ترد على رسائلهما ، وأن بريطانيا تتعامل معهما ببرود شديد في تسوية عديد من المشكلات المعقدة ذات الأهمية الكبرى لها ، ويرجع ذلك إلى أنه ليس للملك عبدالعزيز تمثيل دبلوماسي في لندن على الإطلاق ، ومن الجهة الأخرى فإن التمثيل البريطاني في جدة «ضعيف للغاية ، لأنه لا يتخطى درجة القنصل ، وهذا يعوق عمليات التسوية في حالة وجود خلاف بين البلدين»[٢٨] . لقد أهمل فيلبي في هذه الرسالة وجود وكيل سياسي ، وذكر فقط كونه قنصلاً ، وربما قصد من وراء ذلك إظهار أن صفته القنصلية تطغى على صفته الدبلوماسية .

وفي الشهـر نفسه ، أكد فيلبي لدالتون على ما ورد في رسالته السابقة له وأوصى «أن تحقق لندن -بدون تأخير- التطوير الضروري للتمثيل البريطاني لدى ابن سعود ، فليس هناك أدنى شك في صداقته ووده نحو بريطانيا ، ولا يجب أن يكون هناك شك في أهميته باعتباره أعظم حاكم عربي في أيامنا هذه . . . يجب أن تمثَّل (بريطانيا) تمثيلاً مناسباً في بلاده ، ولا نعجب لامتعاضه من مجرد وجود وكيل أو قنصـل لنـا في بلاده . . . ومن ناحيتي ، فلن أضيع وقتاً حتى أقنع الحكومة البريطانية برفع وكالتها إلى مستوى المفوضية ، وأن ذلك يجب أن يتبعه تعيين وزير مفوض لها في جدة في أقرب فرصة»[٢٩] .

الـواقع أن فيلبي كان قلقاً من احتمال تزايد نفوذ الاتحاد السوفييتي وتركيا وفـرنسا لدى الملك عبدالعزيز ، فقد رفعت الدول الثلاث تمثيلها إلى مستوى المفوضية ، وقد ينتج عن ذلك إضرار بالمصالح البريطانية بعامة ، ومصالح فيلبي بصفـة خاصـة . ولهـذا نراه حين يكتب لدالتون ، يؤكد له أن مسألة التمثيل الـدبلومـاسي والقضـايا الأخرى المعلقة بين البلدين «يجب أن تعالج بالسرعة

المطلوبة ، وعلى أسس معقولة ، ومن المناسب لبريطانيا أن تطلب إلى ابن سعود أن يرسل وفداً إلى لندن لمناقشة هذه القضايا وتسويتها» . ويضيف فيلبي «إنني مقتنع أن مناقشة كل هذه المسائل في جو بريطانيا البارد معك (دالتون) ومع المستر هندرسون (وزير الخارجية) سيكون مناسباً جداً وبعيداً عن المتناقضات المحلية هنا»[٣٠] .

واضح من أوراق فيلبي الخاصة (المحفوظة في كلية سانت أنتوني بجامعة أكسفورد) أن مسألة التمثيل الدبلوماسي قد نالت اهتمامه ، وأنه وجد -أثناء زيارته للندن في خريف ١٩٢٩- كلاً من دالتون وهندرسون مستعدين لاتخاذ الموقف المناسب ، فور وصول طلب الملك عبدالعزيز من خلال القنوات الرسمية العادية . وكانت هذه فرصة طيبة لحافظ وهبة كي يتقدم بطلب فوري لرفع مستوى التمثيل الدبلوماسي وتبادله . ولكن وهبة كان مريضاً وملازماً المستشفى ، ولم يكن سكرتيره ذا كفاية تسمح له بعرض الموضوع . وحين خرج من المستشفى كان دالتون وهندرسون قد سافرا إلى هولندا وسويسرا في جولة أوروبية ، وحينما عادا كان وهبه قد غادر إنجلترا[٣١] .

من الواضح أن الأمور الإجرائية لم تكن تسير على ما يرام ، فلا وهبة كان منظّماً لبرنامج زيارته ، ولا وزارة الخارجية كانت متعجلة للأمر . وحين نقل فيلبي صورة ما جرى في لندن خلال صيف وخريف عام ١٩٢٩ إلى فؤاد حمزة ، طمأنه بقوله «إن دالتون أكد لي أنه ليس هناك مانع لدى الحكومة (البريطانية) من إنشاء مفوضية في جدة فور إعادة عرض الموضوع ، من جديد ، من خلال القنوات الرسمية» ، وأضاف فيلبي أنه جرى التفكير في إسناد مفوضية جدة -عند تأسيسها- إلى السفير البريطاني في القاهرة ، على أن يعين هذا نائباً عنه في جدة بدرجة وزير مفوض . ولكن مثل هذه المسألة قد تولد حساسية لدى حكومة الحجاز - نجد . وحين اعتزمت لندن أن تطلب إلى حافظ وهبة أن يستشير

حكومته ، كان قد غادر إنجلترا . وخلاصة القول أن فيلبي أراد أن يُطمئن فؤاد حمزة على أن قضية التمثيل الدبلوماسي لم تعد مسألة مبدأ ، وإنما صارت مسألة وقت[٣٢] .

تطورت الأمور بسرعة خلال الخريف نتيجة لجهود كل من حافظ وهبة وفيلبي ودالتون . وطلب هندرسون إلى الخزانة Treasury سرعة تدبير المبالغ اللازمة لإجراء التطوير المطلوب[٣٣] .

وصار من الممكن ، في ٣ سبتمبر ، أن يتحاور ممثلو البلدين من خلال القنوات الرسمية للبدء في الإجراءات التنفيذية لتعيين ممثل لكل منهما لدى الطرف الآخر[٣٤] .

واكتملت في ١٢ ديسمبر جميع الخطوات الرسمية في لندن فيما عدا خطوتين : الأولى : إخطار الملك عبدالعزيز بما تم التوصل إليه . والثانية : الاتصال بأحد أعضاء البعثة الدبلوماسية في الشرق لشغل الوظيفة المقترحة .

*****

أخطرت الحكومة البريطانية الملك عبدالعزيز في ١٧ ديسمبر ١٩٢٩ بموافقتها على رفع مستوى التمثيل الدبلوماسي ، وتبادله معه . ولكن نظراً لأن مسألة اختيار موظف دبلوماسي بدرجة وزير مفوض يقبل وأسرته الإقامة الدائمة في جدة ، قد يستغرق بعض الوقت ، فقد تقرر تكليف بوند ، الوكيل السياسي والقنصل في جدة ، بتحمل المسئولية ، إلى حين تعيين الشخص المناسب لهذا المنصب الجديد . وبعد ثلاثة أيام من ذلك تحمل بوند مسؤلياته كقائم بالأعمال Chargé d'Affairs[٣٥] .

إن التجارب التي خاضتها وزارة الخارجية فيما مضى ، جعلتها تعتقد في صعوبة الحصول على موظف تتوافر لديه «الخبرة الكافية والاستعداد» لقبول الإقامة في شبه الجزيرة العربية . فقد واجهت الخارجية ذلك في عام ١٩٢٥[٣٦] ثم في عام ١٩٢٨[٣٧] ، ولم تستطع حسم هذه المسألة إلا في عام ١٩٢٩ . ففي بداية أغسطس كانت كل الدلائل تشير إلى ضرورة أن يكون شاغل هذه الوظيفة الدبلوماسية أحد الموظفين العاملين بالفعل في الشرق ، لما لديهم من دراية بأمور المنطقة ، وتكييف مع ظروفها المناخية الحارة .

وقع الاختيار على سير أندرو ريان Sir Andrew Ryan ، القنصل العام بالمغرب ، ليكون «مندوباً فوق العادة ووزيراً مفوضاً في جدة Envoy Extraordinary and Minister Plenipotentiary اعتباراً من يوم ٢٢ ابريل ١٩٣٠ . ويشير ماضي ريان في مجال الخدمة الدبلوماسية والقنصلية إلى أنه من أكفأ العناصر التي يمكن أن تشغل مثل هذا المنصب ، فهو ينتمي إلى مدرسة الليفانت Levant Diplomatic Service وسبق له أن عمل نائباً للقنصل Vice Consul في استانبول سنة ١٩٠٣ ، ثم قنصلاً بها في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة . وإبان الحرب نقل إلى وزارة الخارجية للاستفادة من معلوماته عن الأتراك ، ولكنه عاد إلى استانبول بعد الحرب في عام ١٩١٨ . وفضلاً عن ذلك عمل في المغرب في المجال القنصلي عام ١٩١٢ ، وعين قنصلاً عاماً هناك في عام ١٩٢٤ ، وظل يشغل هذا المنصب إلى أن نقل إلى جدة في وظيفته الدبلوماسية الجديدة[٣٨] .

أخطرت لندن حكومة الحجاز - نجد بترشيحها لريان في ١٨ يناير ١٩٣٠[٣٩] ، فرحبت به ترحيباً شديداً في رسالة بعث بها الأمير فيصل بن عبدالعزيز إلى بوند في ٢٧ يناير[٤٠] . وعبر فيلبي عن سعادته لأن جهوده في هذا المجال قد كُللت بالنجاح ، وكتب إلى صديقه دالتون في ١٧ يناير ١٩٣٠ ، أي قبل أن تخطر حكومة الحجاز - نجد بيوم واحد ، مقدماً كل خبراته وتصوراته لما

يجب أن تكون عليه المفوضية ، وما يجب على الوزير المفوض الجديد أن يفعله ، كي يكسب ثقة الملك عبدالعزيز ومساعديه . يقول فيلبي :

«إن قرار إنشاء مفوضية هنا في جدة خلق انطباعاً مريحاً ، إن نفوذ هذه المفوضية وأهميتها لا يمكن أن يقاس بالكلمات ، إنها واحدة من الأعمال البسيطة التي تحقق الكثير في إظهار حسن النوايا . إن اختيار ريان اختيار موفق لما لديه من تجربة طيبة في الشرق ، ولكن يؤخذ عليه أنه لا يعرف العربية ، وهذا أمر خطير ، ولكن لعل الميزات التي لديه تحقق التوازن المطلوب . إنني آمل أن تلح عليه (ريان) بأن المظهر العام للمفوضية في حاجة إلى تغيير جوهري بحيث يبني على أسس جديدة ، لأنه قائم الآن على كونه وكالة . إن عليه (ريان) أن يستثمر وقته في المهام الدبلوماسية الأساسية ، تاركاً المسائل الأقل أهمية لمساعده ، مع وضعه تحت الإشراف التام ، وعليه أيضاً أن يصرف بعض الوقت في عمل اتصالات طيبة مع الأعيان من أهل البلاد ، وفي تطوير العلاقات الودية والصداقات الشخصية ، صحيح أن العمل القنصلي يقتضي عدم التداخل إلا فيما يتصل بالعمل ، إلا أن مثل هذا الأسلوب لا يتفق والمألوف هنا ، لأن المهم أن تجعل نفسك محبوباً»[٤١] .

لقد قدم فيلبي إلى ريان -دون أن يطلب منه- كامل خبرته في التعامل مع الملك عبدالعزيز وحكومته . فما هي دوافعه إلى ذلك ؟

في رسالته السابقة إلى دالتون يقدم فيلبي جانباً من الرد على هذا السؤال ، فهو يطلب من دالتون أن يقوم بمهمة الوساطة في أن يرسم لدى ريان صورة طيبة عنه ويقول :

«إذا أمكن أن تنبهه (ريان) إلى أنني (فيلبي) لم أعد الشخص الناكر للجميل Persona ingrata وأنه (ريان) لن يخطيء إذا استشارني ، لأنني سأضع تحت

تصرفه كل ما لدي من معلومات ، ولن أدخر جهداً في مساعدته . إنني لا أسعى إلى الحصول على أية مكافأة أو وظيفة من وراء ذلك ، فقد وضعت كل أوراقي أمامك فيما يتعلق بإظهار حسن النوايا مع العرب ، وإذا كان لي من مهمة مقدسة في حياتي فهي أن أحقق إنسجاماً كاملاً بين بريطانيا وشبه الجزيرة العربية»[٤٢] .

ربما كان فيلبي يطمع في أن يعود إلى الخدمة في الحكومة البريطانية كما كان حتى عام ١٩٢٤ ، باعتباره من أكثر البريطانيين كفاية وعلماً بشئون شبه الجزيرة العربية ، ولعله أراد أن يقول أنه أكثر الناس كفاية لتحقيق الإنسجام المطلوب في العلاقات البريطانية – العربية وبالتالي فإنه يقلل من شأن ريان الذي سيكون من الضروري عليه أن يستشير فيلبي في كثير من الأمور الهامة بطريقة غير رسمية .

ولا يتردد فيلبي في أن ينتقد بوند (القائم بالأعمال) بسبب تجاهله للوزير السوفييتي (عميد الدبلوماسيين في جدة) وبسبب إقامته لناد أوروبي في مدينة إسلامية ، محرم فيها الشرب والموسيقى والرقص ولعب الورق ، فهو يضرب بكل ذلك عرض الحائط دون أن يستأذن لندن . وينهي فيلبي خطابه إلى دالتون بالتأكيد على أنه نصح بوند بما يكفي لإصلاح الأمر ، ولكنه لم يعمل بالنصح[٤٣] .

لقد انقطع فيلبي عن الكتابة إلى دالتون في الفترة من منتصف يناير إلى منتصف أبريل ١٩٣٠ ، وهي الفترة التي أعقبت تعيين ريان مباشرة ، ولكنه حين يعود إلى الكتابة يوجه نقداً مغلفاً لكل من بوند وريان ، ويركز على جوانب القصور فيهما . ويبدو فيلبي قلقاً للغاية ، إلى حد أنه كتب إلى دالتون رسالتين مستقلتين في يوم واحد . وفي إحداهما يقول «ليس لدي ما أكتبه خلال الشهرين الماضيين» . لقد استشعر فيلبي الضرر والإهمال من لندن ، ويتضح ذلك من هذه الرسالة التي يخاطب فيها دالتون بقوله :

«إن زوجتي كانت رشحتني -أثناء لقائها بك في مصر- لشغل إحدى الوظائف التابعة لإدارتك ، ولكنني لم أطلب منها ذلك ، ففكرة أن أكون وزيراً بريطانياً في جدة ليست مغرية لي على الإطلاق ، ولست مستعداً لقبولها إلا في حالتين : الأولى أن ترجوني لندن أن أقبلها على أنها مهمة خاصة ، والثانية أن تسوى مسألة سكة حديد الحجاز بالأسلوب الذي اقترحته . أعتقد أنني أخدم المصالح البريطانية لو بقيت حراً ، لأنني سأتمكن من تقديم النصح كما كنت أفعل مع كلايتون . أنا الآن أقدم معلوماتي إليك مجاناً ، ولي مطلب واحد هو أن يعاملني المسئولون البريطانيون هنا على أني حليف . أنا لم أتوقع ذلك في ظل حكومة المحافظين السابقة . إن العرب ينظرون إليّ الآن على أنني ممثل الحكومة البريطانية أكثر من القائم بالأعمال . . . آمل أن يكون ريان شخصاً مختلفاً عن سابقيه في التعامل معي ، كما أن الصراحة معي ستكون مفيدة نظراً لعلاقاتي الطيبة بالملك وبوزارة الخارجية»[٤٤] .

هل كان فيلبي يسعى لكسر حاجز العزلة الذي فرضه عليه المسئولون البريطانيون السابقون ؟ أم أنه كان يريد أن يدفع عن نفسه سوء الظن ، بعدما فشل في أن يشغل وظيفة القائم بالأعمال ، أو الوزير البريطاني في جده ؟ أم أنه أراد أن يهيء ريان إلى حسن معاملته ؟ أياً كانت الإجابة على هذه الأسئلة ، فإن فيلبي لا يعنينا هنا إلا بقدر ما يمكن أن يُيسر أو يُعقد أعمال الوزير الجديد في جده . وعلى كل حال ، فقد انتهى دوره كوسيط في مسألة تطوير التمثيل الدبلوماسي وتبادله .

ومهما يكن من أمر ، فقد وصل ريان إلى جده في ٦ مايو ١٩٣٠ . وتعكس الطريقة التي استقبل بها من المسئولين ، مشاعر الارتياح الشديد ، لوصول وزير بريطاني إلى الحجاز . وقد يكون من المناسب أن نترك كلمات ريان تصف لنا استقبال المسئولين له في جدة :

«خرج المسئولون يعبرون عن اهتمامهم وترحيبهم بوصولي . وأرسل حاكم جدة قائد الحرس لاستقبالي على ظهر السفينة Dahlia ثم نزل هو نفسه لاستقبالي على الرصيف . ومع عبارات الترحيب الخاصة بي سلمني رسالة ترحيب من الملك عبدالعزيز ، تضمنت اعتذاره عن عدم مقابلتي لسفره الضروري (للحج) وأنه سيلقاني بعد أداء الحج ، وبعد أن أديت التحية للجميع بأسلوب مناسب ، توجهت إلى المفوضية في سيارة بعث بها حاكم جده . . . إنني لسعيد أن كل شيء يتعلق بوصولي قد سار في طريق تكوين انطباع جيد»[٤٥] .

ورحب الملك عبدالعزيز بريان يوم وصوله تليفونياً ، وهنأه بسلامة الوصول . وفي اليوم التالي بعث ريان برسالة شكر للملك ، حملها إليه حاكم جدة ، عندما كان في طريقه لأداء الحج . وانتهز ريان فرصة لقائه بحاكم جدة ، وتحدثا معاً عن الحج والتسهيلات التي يلقاها الحجاج ، ومدى حرص الملك عبدالعزيز على تقديم مزيد من التسهيلات ، حرصاً منه على توطيد علاقاته ببريطانيا ، التي ترعى أعداداً كبيرة من المسلمين . وفي هذا اللقاء عبر ريان عن مدى استعداده للعمل في انسجام مع الملك عبدالعزيز وحكومته[٤٦] .

وفي ١٧ مايو ، وبعد انتهاء موسم الحج ، استقبل الملك عبدالعزيز سير اندرو ريان ، واحتفل به -كما هو مألوف- في القصر الأخضر بجدة[٤٧] ، حيث قدم ريان أوراق اعتماده . وقد وصف ريان اللقاء في رسالة إلى هندرسون كما يلي :

«وصلت بصحبة قائد حرس جدة ومعي زملائي في سيارتين متواضعتين ، وأديت لي التحية العسكرية في القصر بدون نشيد قومي ، وربما كان ذلك لأن الوهابيين يكرهون الموسيقى . . . واستقبلني الشيخ فؤاد حمزة والشيخ حافظ وهبة ، الوزير المفوض (المرشح) للندن فضلاً عن مسئولين آخرين . وبعد فترة قصيرة توجهت ومعي مستر بوند ، القائم بأعمال المفوضية ، والمترجم إلى حجرة

الاستقبال ، حيث كان الملك في موضع متميز ينتظرنا وحوله ضباطه . وبعد أن سلم عليّ باليد ، ألقيت خطبتي التي كنت أعددتها ثم سلمتها وأوراق اعتمادي إلى جلالته . وعندما قرأ مترجم المفوضية الصيغة العربية ، أجاب الملك بكلمة قرأها سكرتيره الشيخ يوسف ياسين ، ثم قرأها في إنجليزية ممتازة الشيخ فؤاد حمزة . عندئذ قدمت أعضاء المفوضية ، وهم مستر بوند ومستر ويكلي wikeley ومنشي إحسان الله Munshi Ihsanullah نائب القنصل الهندي - البريطاني ، والمترجم»[٤٨] .

وبعد هذا اللقاء الرسمي جلس الملك وضيفه ، يتجاذبان أطراف الحديث ، وهما يحتسيان القهوة والليمون» . وبعد تبادل هذه الأحاديث طلبت (ريان) من الوفد الانصراف ثم خطوت خطوات إلى الخلف ، منحنياً تجاه الملك ، طبقاً للأسلوب الأوروبي في الإتيكيت»[٤٩] .

كان ريان حريصاً على أن يصف كل شيء في اللقاء الأول بينه وبين الملك عبدالعزيز ، وقال في تفسير ذلك ، هذه هي أول مرة تطأ فيها قدما وزير بريطاني أرض الحجاز ، وهو حريص على أن يسجل كل تفاصيل هذا الموقف الجديد ، ولذلك نراه يهتم بكل شيء فيصف الملك ، ملبسه ومظهره والمكان الذي ينزل به . يقول ريان :

«كان الملك عبدالعزيز متسامحاً كما كنت أتوقع ، وكانت طريقة استقباله ودية . . . وكان مظهره محترماً في عباءته الفضفاضة والمصنوعة من خامة جيدة ، وهي الزي العربي المألوف . . . أما غرفة الاستقبال فهي معقولة المساحة ومفروشة بالسجاد ، ولكن يعيبها أنها مفروشة بأثاث فرنسي»[٥٠] .

خرج ريان من القصر الأخضر مودعاً بنفس طريقة استقباله . وفي مساء ذات اليوم دعاه فؤاد حمزة إلى العشاء في وزارةالخارجية ، وحضر العشاء أربعة

عشر شخصاً من الأعيان ، من بينهم مستر فيلبي ، وحافظ وهبة ، الذي كان يستعد للسفر إلى لندن ، ليكون أول وزير مفوض لبلاده في بلاط ملك بريطانيا العظمى[٥١] .

* * * * *

سار تأسيس أول مفوضية سعودية في لندن على قدم وساق مع تأسيس نظيرتها البريطانية في جدة ، مع فارق واحد هو : أن المفوضية السعودية كانت تأسيساً لتمثيل دبلوماسي لم يكن موجوداً في أية صورة من قبل ، أما المفوضية البريطانية في جدة فكانت تطويراً لتمثيل دبلوماسي قنصلي قائم بالفعل .

كان الملك عبدالعزيز قد رشح حافظ وهبة ليكون أول وزير مفوض له في لندن ، وجاء هذا الترشيح مفاجأة للبريطانيين من حيث شخص المرشح ومن حيث التوقيت . أما التوقيت فكان سابقاً لأوانه - كما عرفنا من قبل . وأما حافظ وهبة ، فإن مواقفه السياسية السابقة تجاه الاستعمار بصفة عامة ، والاستعمار البريطاني على وجه الخصوص ، ومناصرته لحركة الجامعة الإسلامية ، ونشاطه القيادي فيها ، كل ذلك كان يشكل رصيداً ضاراً به لدى الحكومة البريطانية ، التي رأته شخصاً غير مرغوب فيه كممثل دبلوماسي لبلاده في لندن . ولكن زيارته للندن في مايو ١٩٢٩ ، لحضور مؤتمر البريد الدولي[٥٢] . ثم مشاركته في نشاط جمعية آسيا الوسطى Central Asian Society في لندن بمحاضرة عن الوهابية في جزيرة العرب ، حيث رأس لورد اللينبي Lord Allenby الجلسة في حضور جمع غفير من المهتمين بتاريخ شبه الجزيرة العربية والإسلام ، وعدد كبير من مسلمي الهند . وكان من بين الحضور سير بيرسي كوكس Sir Persy Cox السياسي البريطاني الشهير في العراق والخليج ، وجورج رندل مسئول شئون الشرق الأوسط في وزارة الخارجية .

ومع أن المحاضرة كانت ذات طابع فكري وعقائدي ، إلا أن الجزء الأخير منها كان ذا طابع سياسي ، وقد سجل رندل في مذكرة أعدها في اليوم التالي للمحاضرة قوله :

«أن الشيخ حافظ وهبة انتهز الفرصة وأعلن -باعتباره الممثل الرسمي لابن سعود- تصريحاً رسمياً يتعلق بموضوع الخلافة ، فالخليفة كان زعيم العالم الإسلامي حينما كان يشمل الوحدة القومية . . . أما الآن ، فإن معظم المسلمين يقعون تحت احتلال قوى أجنبية ، وأن الخليفة في هذه الحالة لن يكون شيئاً أكثر من شبح ، وأن ابن سعود ليست لديه النية أو الرغبة في أن يشغل منصباً يكون فيه شبحاً»(٥٣) .

إن حرص حافظ وهبة على تأكيد عدم سعي الملك عبدالعزيز للخلافة الإسلامية ، لأنها صارت بلا مضمون ، يعني أن الملك عبدالعزيز لم يكن على استعداد لأن يتزعم الرأي العام الإسلامي المعارض لبريطانيا ، وهذه بالطبع نقطة إيجابية من وجهة النظر البريطانية يمكن أن تدفع بريطانيا إلى توثيق علاقاتها به . ولكن المهم هو أن التصريح في هذه المناسبة يصدر على لسان حافظ وهبة الداعية السابق لحركة الجامعة الإسلامية المناهضة لبريطانيا . إن حافظ وهبة على هذا النحو لم يعد عدو بريطانيا التقليدي ، وبالتالي فليس هناك مانع من التعامل معه ، عند تمثيله للحكومة السعودية .

تأكدت النتيجة السابقة في ٣ سبتمبر ١٩٣٩ ، عندما نشرت صحيفة الديلي تليجراف -نقلاً عن وكالة رويتر- أن الشيخ حافظ وهبه صرح بأن موقف الملك عبدالعزيز تجاه المسألة الفلسطينية يتلخص في :

«أن فلسطين هي الأرض المقدسة للديانات الثلاث : المسيحية واليهودية والإسلام ، وإنها لرغبة قوية لدى ابن سعود أن تعيش هذه العقائد الثلاث معاً

في صداقة وود في الأرض المقدسة . . . إن الملك عبدالعزيز - فيما يتعلق بجيرانه . . . صديق بالضرورة لبريطانيا العظمى ، وإنه لن يحاول أن يخلق لها مصاعب جديدة فوق تلك التي تواجهها الآن في فلسطين أو في مكان آخر . . . إن الملك صديق لبريطانيا . . . وهو يثق في صداقتها وفي عدالتها ، وهو على يقين أنها كدولة منتدبة ستحقق فيما يجري في فلسيطن ، وستقيم العدالة بين (أصحاب) الديانتين ، وإنه لمن السخف -على أية حال- الاعتقاد بأن الملك سيفعل كل ما تريده إنجلترا»[٥٤] .

كانت تصريحات وهبة في معظمها تروق للإنجليز ، وخصوصاً أنها صدرت عن رجل عُرف بتعصبه ضد سياسة بريطانيا الشرقية ، فهو عضو مؤسس في جمعية «خدام الكعبة» في دلهي ، وهو صاحب مؤلف عن الجامعة الإسلامية ، صادرته الحكومة المصرية في العشرينيات من القرن العشرين ، وقد وضعته المخابرات البريطانية في قائمتها السوداء ، واعتبرت جمعية خدام الكعبة جمعية «خطيرة»[٥٥] .

ومن وجهة النظر البريطانية ، فإن هذا الماضي الحافل للشيخ حافظ وهبة ، حال -في بداية الأمر- دون قبوله وزيراً مفوضاً للملك عبدالعزيز في لندن . إلى أن أظهر مواقف جديدة في مؤتمر البريد الدولي ، وفي جمعية آسيا الوسطى ، وما تبع ذلك من تصريحات ، فتحولت وزارة الخارجية عن موقف الرفض السابق ، ورحبت به ليكون أول وزير سعودي مفوض في لندن . وفي نفس الوقت أخطرت بوند (القائم بالأعمال في جدة) بهذه الخطوة ، ولكن الإجراءات التنفيذية تأجلت حتى مطلع العام التالي ، وفي ٤ فبراير ١٩٣٠ ، تم ترتيب كل شيء كما أراد الملك عبدالعزيز[٥٦] ، الذي أظهر سعادة بالغة لدى علمه بقبول الحكومة البريطانية لشخص حافظ وهبة وزيراً مفوضاً له في لندن[٥٧] .

غادر وهبة الحجاز إلى لندن في أول يوليو ١٩٣٠ ، بعد أن شارك في استقبال

الوزير البريطاني إلى جدة (أندرو ريان) ، الذي كان قد تلقى تعليمات من لندن بمراقبة وهبة جيداً ، وإبراق كل ما يراه من ملحوظات ، قد تفيد الحكومة البريطانية ، عندما تبدأ في التعامل معه لدى وصوله ، وقد طلب نفس الشيء من المندوب السامي بمصر ، عند مرور وهبة بها[٥٨] .

أفصح وهبة لريان على مائدة الغذاء قبل سفره «أنه سيكون سعيداً بتوطيد العلاقات السعودية - البريطانية» . وعلم ريان أن «وهبة غير مستريح للعناصر السورية» المحيطة بالملك عبدالعزيز ، وخصوصاً فؤاد حمزة ويوسف ياسين . ولكن الملك لم يكن على استعداد للتخلي عن أي من العناصر السورية في ذلك الوقت ، «ربما لأن طموحاته الكبرى تهدف إلى تأمين عرش تلك البلاد (سوريا) لأحد أبنائه» . وعلم ريان أيضاً أن الملك يحترم آراء حافظ وهبة ، بينما يرى وهبة أن الملك ليس سهلاً[٥٩] .

واصل وهبة رحلته من مصر إلى لندن في ٤ أغسطس ، فوصلها في ٧ نوفمبر ، واستقبله الملك جورج بعد ثلاثة أيام[٦٠] ليبدأ عمله كأول وزير مفوض للملك عبدالعزيز في بريطانيا ، وليكون أول وزير مفوض على الإطلاق يبعثه الملك عبدالعزيز إلى أي مكان في العالم .

وبتعيين حافظ وهبة في وظيفته الدبلوماسية بلندن ، صار في إمكان الملك عبدالعزيز أن يخاطب وزارة الخارجية البريطانية مباشرة ، سواء من خلال وزيره المفوض هناك ، أو من خلال الوزير المفوض البريطاني في جدة . ولكن هل حدث ذلك فعلاً ؟ وهل قامت أي من المفوضتين بالدور المرجو منها في توطيد العلاقات بين الطرفين ؟ لقد حاول الطرفان ، ولكن المعوقات كانت أكبر من أن تزاح عن الطريق في يسر .

لم يمض شهر على ريان في جدة حتى أدرك «حجم الصعوبات التي يجري

من خلالها العمل الدبلوماسي. . . إن هذه الصعوبات يشعر معها الشخص المسئول بمرارة ، حين يحاول أن يؤسس تمثيلاً بريطانياً قوياً في الحجاز. . . وهي تنجم عن وجود المفوضيةالبريطانية في جدة. . . فليس من اليسير الوصول إلى الملك. . . وهو في الواقع المسئول عن الشئون الخارجية ، كما أن وزارةالخارجية مقرها مكة ، والقائم بالأعمال يستطيع أن يناقش المسائل المشتركة فقط ، ولكنه لا يستطيع أن يصنع قراراً. . . وهو موزع الجهد بين الطائف ، حيث يجب أن يمثُل أمام الملك ، وبين وزارة الخارجية في مكة (وبين المفوضية في جدة)»[٦١] .

وتعتبر هذه المشكلات قضية أخرى ، لا تعنيا هنا الآن ، حيث أفردنا لها بحثاً آخر . ولكن المتتبع لتطور العلاقات بين الطرفين ، يلاحظ أن الفترة التي أعقبت تبادل التمثيل الدبلوماسي ، كانت من أسوأ الفترات في العلاقات البريطانية - السعودية ، ولعل هذه الفترة كانت مسئولة عن تغلغل النفوذ الأمريكي إلى المملكة العربية السعودية فيما بعد .

* * * * *

كانت إقامة المفوضية السعودية في لندن[٦٢] ثمرة جهود متواصلة ، بدأت مع بداية العلاقات البريطانية - السعودية . ولكن إقامتها تأخرت بسبب معوقات رأت بريطانيا أنها تحول بينها وبين تدعيم علاقاتها بعبدالعزيز آل سعود . ومن ناحية أخرى لم يكن لدى بريطانيا دوافع قوية لإزاحة تلك المعوقات . وكانت في حاجة دائمة لمن يذكرها بأهمية تأسيس علاقات دبلوماسية مع الملك عبدالعزيز ، وفي كثير من الأحيان كان هو نفسه قادراً على تذكيرها ، بالإلحاح أحياناً ، وبفرض سياسة الأمر الواقع عليها أحياناً أخرى .

أما المفوضية البريطانية في جدة ، فقد فرضت إقامتها روح التنافس بين بريطانيا وعدد من الدول الكبرى مثل الاتحاد السوفييتي وفرنسا ، هذا فضلاً عن

حرص الملك عبدالعزيز الشديد على أن يكون لبريطانيا تمثيل قوي في بلاده ، فقد استفاد كثيراً من التناقضات بينها وبين منافساتها في شبه الجزيرة العربية ، وساعده على ذلك مهاراته الخاصة في استثمار الظروف المحيطة به جيداً .

ولم يكن سير أندرو ريان شخصاً سهلاً ، بل كان متعجرفاً في كثير من الأحيان ، اصطدم بالملك عبدالعزيز في أكثر من مناسبة ، وأساء إلى العلاقات البريطانية - السعودية أكثر مما أفادها ، ويلاحظ المتتبع لتطور العلاقات بين البلدين ، أن إقامة التمثيل الدبلوماسي لم يخدم هذه العلاقات ، وإن أفاد أسلوب الاتصال ويسره .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان لإقامة تمثيل دبلوماسي بين البلدين ، في عام ١٩٣٠ دلالات الهيبة والاحترام في الأوساط الدولية .

الحواشي

(١) أنظر : جمال محمود حجر ، «المد والجزر في السياسة البريطانية تجاه شبه الجزيرة العربية ، ١ - ملامح التغير في العلاقات البريطانية - السعودية ، ١٩١٠ - ١٩١٥» ، مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية - جامعة قطر ، العدد ١ (١٩٨٩) .

(٢) أنظر : جمال محمود حجر ، «المد والجزر في السياسة البريطانية تجاه شبه الجزيرة العربية ، ٢ - بريطانيا بين الشريف حسين وعبدالعزيز آل سعود ، ١٩١٥ - ١٩٢٠» (مقبول للنشر) في : مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية - جامعة قطر .

(٣) أنظر : جمال محمود حجر ، «مشروع جور لإعادة تنظيم الإدارة البريطانية في الشرق الأوسط عام ١٩٢٠» ، في كتاب المؤلف : القوى الكبرى والشرق الأوسط في القرنين التاسع عشر والعشرين ، (الأسكندرية : دارالمعرفة الجامعية ، ١٩٨٩) ، ص ١٥٩ - ١٨٩ .

(٤) فؤاد حمزة من أصل سوري تعلم في كلية البعثة التبشيرية في بيروت ولديه معرفة جيدة باللغة الإنجليزية فضلاً عن العربية ، اتهم بالتآمر على الإدارة البريطانية في فلسطين عام ١٩٢١ ، وهرب منها إلى مصر . وفي عام ١٩٢٦ دعاه الملك عبدالعزيز - بناء على توجيه من الشيخ يوسف ياسين القائم بإدارة الشئون الخارجية وقتئذ - للعمل في خدمة حكومة الحجاز - نجد . ساهم منذئذ في كل المفاوضات التي جرت بين بريطانيا والملك عبدالعزيز . وفي عام ١٩٢٩ تحمل مسئولية إدارة الشئون الخارجية ، ولم تحل الشكوك السياسية التي دارت حوله في الماضي من جهة بريطانيا دون التعاون معه .

ويعتبر من أنجح العناصر التي أدارت الشئون الخارجية للملك عبدالعزيز آل سعود ، أنظر :

Ryan to Warner, 15 July, 1930; High Comm. (Palestine) to C. O., 4 Sept. 1930, E5169/4191/91, F.O. 371/ 14482.

(٥) يعتبر بيرد Stonehewer - Bird من العارفين بشئون منطقة البحر المتوسط ، فهو ينتمي إلى مدرسة الليفانت الدبلوماسية ، وخدم في بوخارست وبلجراد في الفترة من ١٩١٨ إلى ١٩٢٣ ، ثم نقل إلى الرباط قائماً بأعمال القنصل هناك ، وفي عام ١٩٢٥ - ١٩٢٦ شغل منصب القنصل العام ، وظل كذلك إلى أن نقل إلى جده في أبريل ١٩٢٧ ، حيث عمل وكيلاً سياسياً وقنصلاً حتى عام ١٩٣٠ ، حين نقل إلى الدار البيضاء . أنظر :

The Foreign Office List.

6. Jeddah Report, Dec. 1928, E489/94/91;
Jeddah Report, Jan. 1929, E1028/94/91, F.O. 371/13728

7. The Foreign Office List.

8. Minute by Rendel, 14 May 1928, E2271/317/91, F.O. 371/13008.

(٩) شغل جاكينز H. G. Jakins منصب قائم بأعمال الوكيل والقنصل في جدة في فترات ثلاث متقطعة من سبتمبر إلى نوفمبر ١٩٢٧ ، ومن أكتوبر إلى ديسمبر ١٩٢٨ ، ومن مارس إلى مايو ١٩٢٩ .

(١٠) ينتمي بوند W. L. Bond إلى مدرسة الليفانت الدبلوماسية ، عمل نائباً للقنصل البريطاني في كريت ١٩١٨ - ١٩١٩ ، ثم نائباً للقنصل في استانبول في العام التالي ، ثم نائباً للقنصل كذلك في المغرب ١٩٢١ -

١٩٢٣ ، ثم في طنجة ١٩٢٣ - ١٩٢٥ ، ثم رقي إلى درجة القنصل ، فالقنصل العام ١٩٢٧ - ١٩٢٨ . وحين نقل إلى جده في ١٣ يونية ١٩٢٩ ، عين قائماً بأعمال الوكيل السياسي والقنصل . ولكنه صار في ديسمبر ١٩٢٩ أول قائم بالأعمال لبريطانيا إلى أن تم تعيين الوزير البريطاني في جدة . أنظر : The Foreign Office List.

11. Memo. by G. Rendel, 7 May 1929, "Appointment of Mr. Bond and Credentials for H.M. Agent at Jeddah", E2404/821/91, F.O. 371/13734.

12. "Address delivered to Ibn Saud by Mr. Bond on 16 June 1929", Bond to Hederson, A., 19 June 1929, E3456/821/91, F.O. 371/13734.

13. Memo. by Rendel, 12 Dec. 1929, "Proposed raising of Status of H. M. Agency at Jeddah to that of a Legation", E6497/821/91, F.O. 371/13734.

14. Bond to F.O., 19 June 1929; Fuad Hamza to Bond, 18 June 1929, E3459/821/91, F.O. 371/13734; Hafiz Wahba to F.O., 24 June 1929, E3252/821/91. F.O. 371/13734.

15. Exract from Eastern Mediterranean Special Intelligence Bureau, Black List relating to Sheikh Hafiz Wahba, War Office to Foreign Office, 6 Oct. 1930, E5402/151/91, F.O. 371/14464; F.O. Memo. by C.F. Warner, 28 Aug. 1930, E4713/433/91, F.O. 371/14468.

(١٦) عمل أوليفانت L. Oliphant كاتباً في وزارة الخارجية اعتباراً من عام ١٩٠٣ ، ثم رقي إلى وظيفة القائم بأعمال السكرتير الثالث في السلك الدبلوماسي عام ١٩٠٥ . ثم عمل في استانبول وطهران في الفترة من ١٩٠٦ - ١٩١١ ، وفي عام ١٩٢٠ عمل مستشاراً بوزارة الخارجية . وفي عام ١٩٢٨ عمل مساعداً لوكيل وزارة الخارجية ، وقد ساهم في صنع أحداث هذا البحث عندما كان يشغل الوظيفة الأخيرة ، أنظر :

The Foreign Office List.

17. Minute by Oliphant, 27 June 1929, E3252/821/91, F.O. 371/13734.

18. E3459/821/91, F.O. 371/13734.

19. Philby to Hamza, 12 Nov. 1929 (Philby Papers, Box 16, File 4).

20. Minute by Opliphant, 27 June 1929, op. cit.

21. Ibid.

22. Ibid.;

وأنظر تطور هذه الأفكار في المذكرة التالية التي أعدتها وزارة الخارجية البريطانية :

- Memo. by F.O. "Propsed establishment of full diplomatic relations between Ibn Saud and Great Britain", 13 Nov. 1929, E5909/821/91, F.O. 371/13734.

من المفهوم أن كلاً من هندرسون وأوليفانت وراندل قد شارك في إعداد هذه المذكرة .

- Documents on British Foreign Policy , (D.B.F.P.) No. 485. pp. 817-818, Vol. VI.

23. F.O. to C.O., 9 July 1929, E3252/821/91, F.O.371/13734.

24. Minute by Oliphant, 27 June 1929, op. cit.

25. I.O. to F.O., 19 July 1929, E3643/821/91, F.O. 371/13734.

26. Minute by F.O., 1 Aug. 1929, E3857/821/91, F.O. 371/13734.

(٢٧) من بين القضـايا التي أهملت الحكومة البريطانية أن ترد فيها على الملك عبدالعزيز ، ذكر فؤاد حمزة هذه المواقف :

(أ) في يونية ١٩٢٩ طلب حمزة رسمياً ونيابـة عن الملك رفع مستوى التمثيل الدبلوماسي في جدة إلى مستوى المفوضية ولم يتلق رداً حتى نوفمبر ١٩٢٩ .

(ب) في مايو ١٩٢٩ عقد مؤتمر مشترك لمناقشة قضايا الخليج ولم تفعل بريطانيا شيئاً .

(جـ) في يناير ١٩٢٩ لم ترد إنجلترا على طلب الملك عبدالعزيز بشأن عقد معاهدة تجارية بين بريطانيا والحجاز – نجد .

28. Philby to Dalton, 7 Nov. 1929 (Philby Papers, Box 16, File 1).

29. Ibid.

30. Ibid.

31. Philby to Hamza, 12 Nov. 1929 (Philby Papers, Box 16, File 4).

32. Ibid.

33. Memo. by Rendel, 12 Dec. 1929, E6497/821/91, F.O. 371/13734.

34. F.O. Memo. 16 Sept. 1929, E4451/2137/91, F.O. 371/13736.

35. Note by Rendel, 13 Dec. 1929; F.O. to Bond, 17 Dec. 1929, E6349/821/91; Henderson to Bond, 20 Dec. 1929, E6626/821/91, F.O. 371/13734.

36. K16647/2735/216/1925, F.O. 371/13008.

37. Minute by Rendel, 14 May 1928, E2271/317/91, F.O. 371/13008.

38. The Foreign Office List.

39. Bond to Hamza, 18 Jan. 1930, E874/334/91; F.O. Minute, 3 Feb. 1930, E595/334/91, F.O. 371/4468.

40. Faisal to Bond, 27 Jan. 1930, E874/334/91; F.O. 371/4468.

41. Philby to Dalton, 17 Jan. 1930 (Philby Papers, Box 16, File 1)

42. Ibid.

43. Philby to Dalton, 14 April 1930 (Philby Papers, Box 16, File 1)

44. Philby to Dalton, 14 April 1930 (Philby Papers, Box 16, File 1).

تختلف هذه الرسالة في مضمونها عن سابقتها بالرغم من أنها تحمل نفس الرقم ونفس التاريخ ، ولذلك أشرنا إليها بكامل تفاصيلها دون اختصار .

45. Ryan to Henderson, 9 May 1930, E2695/334/91, F.O. 371/14468.

46. Ibid.

(٤٧) لم يكن للملك عبدالعزيز حتى ذلك الوقت بيت مناسب في جدة ، وكان ينزل ضيفاً على الأعيان لدى وصوله إليها . وقد حصل على هذا القصر الأخضر من أحد موظفي الجمارك ، الذي يقال أنه جمع مالاً وفيراً من وظيفته .

48. Ryan to Henderson, 18 May 1930, E3039/334/91, F.O. 371/14468.

49. Ibid.

50. Ibid.

51. Ibid.

52. Lord Llyod to F.O., 26 April, 1929; Memo. By Rendel, 2 May 1929, E2137/2137/91, F.O. 371/13735.

53. Memo. By Rendel, 6 July 1929, E3490/2137/91, F.O. 371/13736.

54. The Daily Telegraph, 3 Sept. 1929.

55. Extract from Eastern Mediterranean Special Intelligence Bureau, Black List Relating to Shaikh Hafiz Wahba, War Office to F.O., 6 Oct. 1930, E5402/151/91, F.O. 371/14464; E4713/334/91, F.O. 371/14468.

56. Bond to F.O., 28 Jan. 1930; F.O. to Bond, 4 Feb. 1930, E523/334/91, F.O. 371/14468.

57. Jeddah Report, Feb. 1930, E 1955/92/91, F.O. 371/14460.

58. F.O. to Sir P. Loraine (Cairo), 2 July 1930, E3494/334/91, F.O. 371/14468.

59. Ryan to Henderson, 1 July 1930; Ryan to Henderson, 28 July 1930, E4049/334/91, F.O. 371/14468.

60. F.O. Memo. 28 Aug. 1930, E4713/334/91; Loraine (Cairo) to F.O. 5 Aug. 1930, E4184/334/91, F.O. 371/14468.

61. Ryan to Henderson, 22 July 1930, E4309/4309/91, F.O. 371/14483.

(٦٢) كان أعضاء البعثة الدبلوماسية في المفوضية السعودية بلندن هم : حافظ وهبة - وزير مفوض ، ومحمود أفندي رياض - سكرتير أول ، والدكتور يوسف سلامة - سكرتير ثان . أنظر : فؤاد حمزة ، البلاد العربية السعودية (الرياض : مكتبة النصر الحديثة ، ١٩٣٦) ، ص١٢٢ .